العثمانيون في أوربا

هذه هي الترجمة الكاملة لكتاب

THE OTTOMAN IMPACT ON EUROPE

by

PAUL COLES

العثمانيون في أوربا

تأليف

بول كولز

ترجمة

د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ

الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٣

الألف كتاب الثانى

الإشراف العام

د. سمير سرحان

رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير

لمعى المطيعى

مدير التحرير

أحمد صليحة

الإشراف الفنى

محمد قطب

الإخراج الفنى

محسنة عطية

مقدمة المترجم

صدر كتاب كولز هذا الذى نقدم اليوم ترجمته الكاملة للعربية ضمن سلسلة (مكتبة الحضارة الأوربية) Library of European Civilization وهذا لا يخلو من دلالة اذ أن هذا يعنى أن العثمانيين يشكلون عنصرا من عناصر الحضارة الأوربية الحديثة والمعاصرة ، وهو ما يثبته هذا الكتاب ٠

ـ والأستاذ الدكتور كولز ، كان يشغل حال تأليفه كتابه هذا ، وظيفة أستاذ العلوم الاجتماعية فى جامعة براد فورد ولهذا فهو لا يقدم لنا تاريخا تقليديا ، يكتفى بعرض الأحداث زمنيا بشكل ممل ، وانما هو يقدم لنا تاريخا حضاريا ثقافيا، يهتم بالفكرة ، وهو شغوف بالمقارنة والتحليل واستخلاص النتائج ، وربط الماضى بالحاضر ٠

ـ والكتاب وثائقى من الطراز الأول ، وهو زاخر بالصور ، الرسوم المعاصرة للأحداث (١٠٩ رسم وصورة) وكان نقل هذا العدد الكبير للطبعة العربية أمرا مرهقا ، ومع ذلك سعينا الى طبع هذه الصور نظرا لأهميتها ٠

ـ وفي ثنايا الكتاب يستخدم المؤلف ألفاظ : الترك ، والعثمانيين ، والمسلمين ، على نحو تبادلى ، فهو مثلا يقول

طورا : هاجم الترك فينا ، وطورا تراجع العثمانيون عن أسوار فينا ، بل انه فى الباب الأخير يجعل عنوانا لاحدى فقراته : تراجع الاسلام ، وهو يقصد تراجع العثمانيين ، لهذا فقد فضلت توحيد اللفظ الدال ليكون هو اللفظ الوارد فى عنوان الكتاب (العثمانيون) الا اذا كان السياق يقتضى غير ذلك عندئذ استخدمت لفظ الترك ٠

ـ وهذا الكتاب فى جانب منه ، صفحة من تاريخ المسلمين فى شرق أوروبا . فى بلغاريا ، وفى رومانيا ، فى يوغسلافيا وفى تشيكوسلوفاكيا وفى شمال شرق اليونان ، وفى ألبانيا ، وفى المجر ، وهم مسلمون بالملايين، عمى تاريخهم الكتاب الغربيون ، وأهمل تاريخهم الكتاب العرب ٠ وهؤلاء المسلمون فى أوروبا ، هم من أهل البلاد الأصليين ، انهم ألبان وتشيك ويوغسلاف ، ومجر وبلغار ٠٠٠ وليسوا أتراكا من الناحية العرقية ، وان تثقفوا بالثقافة التركية ٠

ـ وقد قسم المؤلف كتابه الى خمسة فصول ، هى :

١ ـ ظهور القوة العثمانية ٠

٢ ـ بنية الدولة العثمانية ٠

٣ ـ الحروب ضد الغرب (١٥٢٠ ـ ١٥٨١) ٠

٤ ـ الأثر العثمانى ٠

٥ ـ بداية النهاية ٠

وسنعرض فى الصفحات التالية بعض أهم الأفكار التى وردت فى هذه الفصول ٠

ـ يتناول المؤلف فى الباب الأول ، الظروف التاريخية لظهور القوة العثمانية ، وهو بمثابة تمهيد بين يدى الموضوع . خاصة بالنسبة للقارىء الغربى الذى يفتقد المعلومات عن التاريخ الاسلامى ، فيبين أن انطلاقة الشعوب التركية المونجولية خلال الفترة التى تبدأ منذ حوالى ١٠٠٠

للميلاد ، عندما وصلت لمنطقة الشرق الأوسط استوعبتها الحضارة الاسلامية العريقة • وقد شكلت هذه الهجرات موجات أثرت على أوروبا ، كالموجة الهندية الأوربية ، فالتركية المغولية ، فالموجة التركية مرة أخرى • ثم يتعرض لمعلومات معروفة مطروقة عن امارة أرطغول وتوسعها ، مبينا جهود أورخان فمراد الأول فى اقرار الدولة والانتقال بها الى مرحلة الاستقرار والعقلانية •• ويعرض المؤلف لمبررات اتخاذ العثمانيين لعقيدة السنة مذهبا ، وما نتج عن ذلك من تسامح دينى ، ويؤكد أن دعم الحكام العثمانيين للمذهب السنى أدى الى ازدهار النظم التعليمية ، ثم يتحدث عن التنظيمات العسكرية العثمانية بايجاز •

ويؤكد المؤلف أن أورخان هو الذى قاد شعبه فى أول فتح لهم فى أوربا ، وأن الترك كانوا منذ سنة ١٣٥٠ يتحركون فى أوروبا كغزاة مستقلين وكمستوطنين •

ثم يتعرض المؤلف بشىء من التفصيل للأوضاع السياسية والعسكرية والاجتماعية فى مناطق شرق أوروبا قبل وقوعها تحت السيطرة العثمانية ، فهذا الفصل اذن كما سبق أن المحنا ، تمهيد بين يدى الموضوع ، وان كان لا يخلو من تحليلات غير مألوفة كقوله ان العثمانيين بتمركزهم فى شرق أوروبا منذ القرن الرابع عشر هم الذين حموا بيزنطة من السقوط على يد امبراطورية الصرب التى كانت قد بلغت أقصى اتساعها على عهد ستيفان دوسان ، وكانت القسطنطينية هى غاية الصرب ، لولا اصطدامهم بالعثمانيين فى أوروبا الذين حالوا بينهم وبين بغيتهم • تحليل جدير بالتأمل ، وأفكار غير مألوفة فى الكتابات العربية عن أوربا، وعن الدولة العثمانية ، على سواء •

ـ أما الباب الثانى فعن بنية الدولة العثمانية ، والمؤلف لا يفرق فى استخدام المصطلحات العثمانية ، كما يتحو كثيرا نحو الدراسة المقارنة ، وتعرض كثيرا للأفكار الاسلامية ، وقد أخطأ فى فهم بعضها وقد علقنا على ذلك فى

حينه ، ونعيد التعليق هنا • وان كان لابد من أن يقع هذا الباحث وغيره من الغربيين فى بعض الأخطاء عندما يتناولون تاريخنا • وعلى أية حال فقد كان من الواضح أن الأخطاء التى وقع فيها صاحبنا ، كانت غالبا عن سوء فهم لا سوء طوية • فالمؤلف يفيض فى أهمية علماء الدين السنة كمشرعين محترمين ، يلقون تأييدا من السلاطين ، ويورد نصوصا تضع الشريعة الاسلامية فى مكان حفى ، ويذكر أن الرسول عليه السلام كان يقر الاعراف المحلية طالما لم تكن تتعارض مع شرائع الدين الحنيف ، ولكنه يورد نصا يذكر أن أحد فقهاء المسلمين امتنع عن أكل البطيخ لأنه لم يجد طريقة أكله فى سنة الرسول صلى الله عليه وسلم • ولا نجد لهذا أصلا ، وان تصرف بعض المتعنتين على هذا النحو ، فليست هذه سنة الرسول، ولا روح الاسلام وبالتالى فليس من مبرر لسوق مثل هذا للدلالة على جمود علماء المسلمين • ورغم أن المؤلف فى الباب الرابع ، وهو من الكتاب لبه ، وفى الباب الخامس ، عن بداية نهاية الدولة العثمانية ، يتحدث مشيدا بسماحة الاسلام وتسامحه مع الأديان الأخرى ، وبتفضيل الرعايا المسيحيين فى البلقان وغيره حكم المسلمين على حكم الكاثوليك ، الا انه يذكر فى هذا الباب الثانى ، شيئا عن عدم تسامح الاسلام مع الأديان الأخرى ، والواقع أن الآيات القرآنية التى تحض على التسامح والدعوة والمجادلة بالحسنى خير دليل على سماحة الاسلام • وليس ثمة مقارنة بين ما شهده المسلمون من عنت بعد سقوط غرناطة فى أيبيريا ، وبين التسامح الذى لقيه النصارى تحت حكم المسلمين فى شرق أوربا أو فى أيبيريا•

وعند حديث المؤلف عن المسئولين الرئيسيين فى الدولة العثمانية يذكر أنهم أربعة ، انصدر الأعظم وقاضى العسكر والدفتردار والنشنجى ، ثم يذكر أن للرقم أربعة دلالة صوفية ، ولا ندرى رقما مقدسا فى الفكر الاسلامى — ولعل هذا كان من بين أفكار أهل البدع ، ولكن أساسه منعدم فى الفكر الاسلامى النقى •

ويذكر المؤلف أن العثمانيين لم يستخدموا القوة لاجبار أحد على التحول للاسلام ، حتى الرقيق • كما يذكر مؤكدا بالأدلة أن الرق فى ظل الدولة العثمانية ، وعند المسلمين عامة ، يختلف فى وضعه وطريقة معاملته عما هو معروف لدى الأوروبيين ، فقد كان الرقيق فى رحاب الدولة العثمانية منعما ، بل ان كل من تسنموا ذروة السلطة فى هذه الدولة كانوا رقيقا فى الأصل •

ويربط المؤلف بين الصراع الذى دار فى الدولة العثمانية بين السنة من ناحية وأصحاب البدع (من ناحية أخرى) وحركة الاصلاح الدينى فى أوروبا حيث كان صراع بين الراغبين فى العودة الى المسيحية فى نقائها الأول من ناحية ، وأصحاب البدع (الكاثوليك) من ناحية أخرى، وتلك فكرة عظيمة ، جديرة بأن يحققها أحد الباحثين ويسهب فيها تفصيلا •

ويبدو أن المؤلف لا ينظر باحترام لفرق الدراويش ويسميهم الهراطقة وأورد صورة لأذكارهم التى تتخذ شكل الرقص (أنظر الصور فى هذه الترجمة) ومما يذكر أن شيوع هذه الخرافات فى الدولة العثمانية كان احد أسباب رفض الحركات السلفية الاسلامية لأسلوب الحياة العثمانى •

والواقع أن الخلفية الثقافية الاجتماعية للمؤلف تجلت أكثر ما تكون وضوحا فى هذا الفصل ، حيث يقارن بين الأرستقراطية الأوربية والارستقراطية العثمانية ، وحيث يتعرض لأساليب السلاطين فى الموازنة بين القوى العسكرية المختلفة ، وحيث يتعرض للدور السيء للدراويش فى الحياة العثمانية •

هذا ما يمكن أن يسمح به المجال فى الحديث عن بعض أفكار هذا الباب ، الزاخر بالتحليلات الاجتماعية •

ـ أما الباب الثالث ، فيتناول فيه المؤلف الحروب العثمانية الأوروبية فى الفترة من ١٥٢٠ الى ١٥٨١ وكان اختيار عام ١٥٢٠ كبداية للفترة الزمنية راجعا الى احتفاء المؤلف بسليمان القانونى ، كما أن تحديد عام ١٥٨١

كنهاية للفترة التى يتناولها فى بابه هذا ، راجع الى أن هذا التاريخ كان ذا دلالة بالنسبة لكل الأطراف ، فقبيل هـذا التاريخ انصرف العثمانيون للحرب صوب الشرق لصد التهديد الشيعى للعالم الاسلامى ·· وفى هذا الفصل يتحدث المؤلف فيكثر عن السلب والنهب كسمة عثمانية ، ويستخدم المؤلف فى هذا الباب كثيرا من المصطلحات التى ألفها المشتغلون بعلم الاجتماع ، خاصة عند حديثه عن (المجتمع) الاسلامى فى مقابل (المجتمع) المسيحى و (المؤسسات) العثمانية ··· وما الى ذلك ·

ويتناول المؤلف الصراع العثمانى الأوروبى فى جبهتين هما : شرق أوروبا ، وحروب البحر المتوسط ·

ومن المعلومات الطريفة التى تناولها ، فى هذا الباب أن العثمانيين استقبلوا فى كثير من بقاع شرق أوروبا وجزر البحر المتوسط استقبال الفاتحين وان أهل البلاد كانوا يفضلون حكمهم على حكم الهبسبرج أو الطليان ·

ويذكر المؤلف من المعلومات ما يؤكد أثر العثمانيين فى نجاح الحركة الاصلاحية البروتستنطية فى أوروبا ، وكيف أن البروتستنط كانوا يعتبرون أنفسهم كالمسلمين (محطمى أوثان) · وانها لمعرى لمعلومات جديدة ، جديرة بالتأمل والتدبر ·

ـ أما الباب الرابع ، فهو من الكتاب لبه ، اذ عنونه المؤلف بعنوان الكتاب كله ، وهو (الأثر العثمانى) ويستفتح المؤلف هذا الفصل بالقول بانه رغم أن العثمانيين فيما يقول معظم المؤرخين الأوربيين ، كانوا مصدر الازعاج الأساسى لأوروبا خاصة ، حتى سنة ١٥٧١ ، اذ أدت هزيمة العثمانيين فى معركة ليبانتو الى تخفيف وطأتهم على أوروبا، الا أن كولن يرى أن « الوجود العثمانى فى أوروبا قد أسهم فى تطور أوروبا بشكل عظيم ، وزامنه » أى زامن هذا التطور ويناقش المؤلف فى هذا الباب عدة قضايا هامة ، فهل كان العثمانيون بسيطرتهم على طرق التجارة الشرقية

عبر مصر وسوريا ، سببا فى توجه البرتغاليين والأسبان للكشوف الجغرافية ؟ ويخلص بنتيجة عجيبة غير مطروقة فى الكتابات العربية عن أوروبا ـ اذ يؤكد أن محاولة البرتغاليين خنق التجارة العثمانية ، هى التى أدت بالعثمانيين الى الوصول الى أوروبا الدانوبية لفتح الطرق البرية للتجارة •

وهل ظلت أوروبا المسيحية بمعزل عن الاسلام ، بمعنى أن الحدود الفاصلة بين المجتمعين الاسلامى والمسيحى ظلت قائمة ، ويرى كولن أن وصول جحافل سليمان القانونى الى فينا ، قد جعل هذه الحدود الثقافية ـ ان صح هذا التعبير ـ غير قائمة ، ثم يتعرض كولن بعد ذلك للتأثيرات العثمانية فى مناطق بعينها ، هى : البلقان وأوروبا الدانوبية ، والمناطق التى حكمها الهبسبرج ، ويتعرض للصراع بين المسلمين والكاثوليك فى البحر المتوسط •

والمؤلف خلال هذا يثير قضايا فائقة الأهمية ، نشير لبعضها هنا مجرد اشارة •

ان تطور فكرة التسامح الدينى فى أوروبا ، ما هى الا تأثير اسلامى لا يحتاج للجاج ، فهو يقارن بين ما حاق بالمسلمين فى الأندلس ، وما كان يتمتع به غير المسلمين فى ظل الدولة العثمانية •

والمؤلف يرى أن الوجود الاسلامى فى البحر المتوسط ، والضغط العثمانى على شرق أوروبا ، وسقوط ممتلكات جنوة والبندقية ، قد أثر فى صياغة تاريخ هاتين الدولتين (جنوة والبندقية) فقد أدى الى توجه اقتصاد جنوة توجها غربيا للعمل فى الميدان الأسبانى والبرتغالى ، كما أدى بالاضافة لعوامل أخرى لسقوط الطبقة الوسطى فى جنوة واهتلاء الارستقراطية كما أدى لتغيير اجتماعى واقتصادى كبير فى البندقية •

ويؤكد المؤلف فى هذا الباب أن الضغط العثمانى خاصة فى عهد سليمان القانونى ، قد أسهم فى انفصال فرعى الهبسبرج ، وبالتالى كان هو ـ أى سليمان ـ عن غير قصد ، المسئول عن تطور امبراطورية النمسا التى لعبت دورا خطيرا فى التاريخ الأوروبى الحديث •

ويشير المؤلف الى أن خروج المسلمين من أسبانيا ، كان عملا كنسيا . لم يلق ترحيبا من الأسبان ويسوق لذلك أدلة وأمثلة منها أن الحكومة الاسبانية اضطرت فى كثير من الحالات لجلب جنود من ألمانيا والنمسا لقمع ثورات المسلمين فى أسبانيا نظرا لرفض ملاك الأراضى الأسبان التعاون معها فى هذا الصدد •

ومن خلال هذا الباب تتضح الجهود الكنسية الاعلامية التى تظهر للناس فى أوروبا عقائد المسلمين بطريقة غوغائية كاذبة ، مستخدمة فى ذلك حتى الفن •

(انظر الصور الملحقة بالباب الرابع) •

ويشير المؤلف على استحياء فى هذا الباب الى أن كثيرا من الأفكار الاسلامية قد أثرت فى النهضة الأوروبية •

انها أفكار جديرة بالتأمل والدراسة خاصة أنها صادرة عن باحث غربى ، ليس ثمة احتمال فى انحيازه للمسلمين ، قد أصدر كتابه كما سبق أن أشرنا ضمن سلسلة عن مكونات الحضارة الأوروبية •

ـ وفى الباب الخامس الموسوم باسم (بداية النهاية) يتعرض المؤلف لتحليلات سياسية واقتصادية واجتماعية ونفسية لتفسير بداية انهيار الامبراطورية العثمانية ولعل أروع تحليلاته وأكثرها جدة ، هى التحليلات الاجتماعية والنفسية •

انه يفسر انتصارات العثمانيين المذهلة فى أوائل القرن السادس عشر ، بتناحر أوروبا واستغراقها فى صراعات بين الأسرات الأوروبية الحاكمة كذلك الصراع الذى حدث بين

الهبسبرج ، وأسرة فالوا الملكيـة الفرنسـية ، وصراعات دينيـة ، تمثلت بشـكل واضـح فى ظهور البروتستنطية وتحدى الكاثوليكية لها • وفى المقابل ، فان أوروبا عندما تخلصت على نحو ما من صراعاتهـا تلك ، بصلح أوجزبرج فى سنة ١٥٥٥ الذى وضع حدا ولـو الى حين لصراع دينى مرير ، وبمعـاهدة كاتو كمبرسيس التى أنهت الحـروب الايطالية ، فانها ـ أى أوروبا ـ قد استطاعت أن تتصدى للمد العثمانى ، أو على الأقل لم تتح للعثمانيين مزيدا من التقدم •

وحدث أن عادت أوروبا لصراعاتها فى القرن السابع عشر ، ممثلا فى حرب الثـلاثين عاما (١٦١٨ ـ ١٦٤٨) وكان يمـكن أن تؤدى هـذه الحروب الى كارثة باجتيـاح العثمـانيين لأوروبا ، لـكن لحسن حظ أوروبا ، كانت الامبراطورية العثمانية فى هذه الفترة قد بدأت تعانى من مشاكل داخلية •

ورغم أن المؤلف يركز على العوامل الاجتماعية فى تفسير الأحداث ، ويذكر انه لم يعـد لائقا بالمـؤرخين ان يجعلوا الفرد هو قطب الرحى فى تفسير الأحداث التاريخية ، الا انه يعود فيقول ان العامل الفردى يعد من اكثر العوامل فعالية فى تفسير الانهيار العثمانى ، فبعد سليمان القانونى ، لـم تشهد الامبراطورية سـوى سلاطين غلبت عليهم نزواتهم وعكفوا فى غرف الحريم لا يبعون عنهـا حـولا ، ثم يعـود فيقارن هذا الوضع ، بما كان عليـه الحـال فى أوروبا ، فيذكر أن نمو البيروقراطية الديوانيـة (أجهزة الحـكم) الأوروبية كان حائلا يحول بين ممارسة الحكام الأوروبيين لنزواتهم حتى ولو كانوا حكاما مجانين أو تعوزهم الخبرة ، ثم يعود فيقول ان الدولة العثمانيـة أيضـا كانت تمتلك أجهزة حكم قوية ، لـكن هـذه الأجهزة كان عمادها الرقيق السلطانى وهذا جعل القرار فى يد السلطان وحده ، ولـم يكن من ضير فى هذا اذا كان السلطان كفؤا كسليمان، ولكن

الحكام الذين أتوا بعده لم يكونوا بمثل كفاءته • ويتعرض المؤلف للفكر السياسى الاصلاحى فى الدولة العثمانية منذ أوائل القرن السابع عشر ، ويقارنه بالفكر السياسى الأوروبى كعادته ، فيذكر أنه منذ أوائل القرن السابع عشر ، والمفكرون العثمانيون ، يحسون ان هناك شيئا ما يجرى على غير ما يرام ، فقد كتب خوجه بك القاضى المسلم المشهور لمراد الرابع مذكرة يبرر بها التدهور بالتخلى عن الكتاب والسنة ، ويطالب بالعودة الى نهج السلف الصالح • ومن الطبيعى ألا يحسن كولن ، فهم هذا ، كغيره من المؤلفين الغربيين ، فهو يفهم العودة للكتاب والسنة على أنها دعوة لعدم التجديد ، وهذا فى الفكر الاسلامى غير صحيح ، فالدعوات السلفية الاسلامية ، هى أيضا دعوات تجديد ودعوات تنقية ، ودعوات عودة للأصول الأولى فى نفس الوقت •

ثم يبدع المؤلف فى التفسير النفسى والاجتماعى للجمود الذى حاق بالطبقة الحاكمة العثمانية فى القرن السابع عشر ، فيذكر أن الانتصارات العظمى التى حققها العثمانيون فى القرن السادس عشر ، كانت مبهرة لدرجة ربطت المجتمع العثمانى عندها ، فلم يستطيعوا تطورا ، ولم يكونوا راغبين فى تغيير أساليبهم الحربية والفكرية والادارية القديمة ، لسبب بسيط وهو أنها ارتبطت فى عقولهم بالنصر ، ولم يدركوا ـ أى العثمانيون ـ ما ألم بالدنيا من تغير •

وكان مراد الرابع (١٦٢٣ ـ ١٦٤٠) قد بدأ حركة اصلاح كان يمكن أن تؤتى ثمارها لولا موته الباكر •

ومن الأفكار الهامة التى تعرض لها المؤلف فى هذا الفصل تأكيده على أن العثمانيين لم يجبروا أهل البلاد الأوربية التى فتحوها على الاسلام ، وهذا يفسر لنا أن اسلام أهل البانيا وغيرهم من سكان شرق أوروبا فى رومانيا وبلغاريا واليونان (سالونيكا) ويوغسلافيا وتشيكوسلوفاكيا قد كان رغبة وحبا لا قسرا وقهرا والواقع أن تاريخ المسلمين

في شرق أوربا وحاضرهم أيضـــا ، فى حاجة الى دراســـة متانية • هم مسلمون من أهل البلاد ، وليسوا تركا ، وان تثقفوا بالثقافة التركيـة • ولعل الكثير من المعلـومات عن مسلمى شرق أوروبا ، والتى بثها المؤلف فى أكثر من فصل من فصول كتابه هذا ، كانت أحـد الدوافع الـكامنة وراء اصرارى على ترجمته •

ويقول المؤلف : « ان المسلمين السنة كانوا يطبقون مبدأ التسامح الدينى مع المسيحيين » • ما أروع هذا !• ولكنه يعود فيقول ان جمـاعات الدراويش بذلت جهـودا لادخال المسيحيين للاسلام بالحسنى •

وفى المقـابل يحدثنـا المـؤلف عن مؤامرات المـاليين اليونانيين ، واليهود ــ خاصة ، على المسلمين واسهامهم فى تجويعهم ••• انه جزاء سنمار• ليس من هدف هذه المقدمة تقديم عرض كامل بكل أفكار الكتـاب وسرده التـاريخى ، وانما هى مجرد اشارات لبعض أفكاره ، وهى فى جملتهـا أفكار وتحليلات جديرة بالنظر •

وعلى الله قصد السبيل

أوروبا والعثمانيون
أوكرانيا
سيليزيا
فينا
البحر الأسود
البحر المتوسط
الأدرياتيك
بوغدان
كافا
فارنا
أدرنة
بلغراد
البندقية
مارسيليا
كورسيكا
سردينيا
صقلية
جزر البليار
الجزائر
وهران
مراكش
تونس
طرابلس
قبرص
بيروت
الإسكندرية
القاهرة
مصر
رودس
غاليبولي
اسطنبول
قشتالة
برشلونة
باريس

مقدمة المؤلف

يذكر لورد أكتون أن التاريخ الحديث يبدأ تحت وطأة الفتوح العثمانية • وليس هذا الكتاب الا تفصيلا يؤكد حكم لورد أكتون هذا ويسبر أغواره •

ومن ناحية التتابع الزمنى ، كانت هذه الفتوح قد انطلقت منذ منتصف القرن الرابع عشر ، عندما اقتحم العثمانيون أوروبا ، وتغلغل خطرهم فى الوعى الاوربى ، بشكل حاد ، حتى أواخر القرن السابع عشر ، فكما كان فشل حصار فينا الثانى (١٦٨٣) ومعاهدة كارلوفتس (١٦٩٩) تمثلان علامتين على بداية تراجع العثمانيين ، تراجعا أكيدا وان طال أمده وبطؤ ـ عن فتوحاتهم الأوربية ، فعى المقابل ، كانت السنوات الممتدة من العشرينات الى الثمانينات فى القرن السادس عشر ، تلقى اهتماما خاصا اذ كان التهديد العثمانى فيها قد بلغ ذروته ، خطورة وكثافة •

لقد انشعب العثمانيون أثناء زحفهم ليعملوا فى مسرحين حربيين متسمين بالضخامة ، هما : منطقة شرق الدانوب والبلقان وأوروبا البحر الأسود ، من ناحية ، وحوض البحر المتوسط من ناحية أخرى • وكانت التطورات فى هذه

المناطق تحكم تتابع القصة • وعلى هذا فان كتابنا هـذا • في الأساس ما هو الا دراسة في تاريخ المواجهـة (تاريخ الحـدود frontier history ولأن المعـركة غالبا ما تتخطى منـاطق الصراع المبـاشر ، كان من الضروري استحضار النتائج المترتبة على ذلك بشكل واسع •

ولم يكن ثمة مناص من الاهتمام بالحروب ، كظاهرة طفت على سطح الرواية التاريخية • وعلى أية حال ، فانني حاولت تفسير هذه المادة التاريخيـة المتعلقـة بالحـروب ، باعتبارها سجلا لمجتمعات يناقض بعضها بعضـا ، وتناولت هذا من خـلال عمليـات التعـارض والتضارب والتداخل والتغير •

ولقـد قامت الآنسة جوانا باراس ، خبيرة المعلـومات بجامعة برادفورد ، بطبع نسخ عديدة من مسودات هـذا الكتـاب ، وراجعت عـديدا من المراجع ، بسرعة منقطعة ودقة • وقد أفادني نقـدها لتدارك عديد من الأخطاء في التركيب اللغـوي ، والى اسـتبدال بعض الاسـاليب غير المناسبة • كما أنني ممتن للغاية للسيد رونالد دافيدسون هوستون Davidson Houston في مؤسسه Thames Dudson لجمعه الصور والرسوم التوضيحية وتخيره للمناسب • كما كان السيد Stanley Baron محررا صبورا اذ قدم عديدا من المساعدات •